المأمون والفضل بن سهل [1]

للأستاذ محمد أحمد رائق

جرت عادة المتقدمين أن يصفوا أفذاذهم بصفات تدل على نواحي نبوغهم، وتنطق بما كان لهم من فضل وأثر يشيعان في جوانب حياتهم فيشتهرون بهذه الصفات ويعرفون بها إذا أضيفت إليهم، ومن هؤلاء من وصفوا بذي الوزارتين، وذي القلمين، وذي اليمينين، وذي الرمحين، وذي النورين، والفضل بن سهل ذو الرياستين.

وهو الفضل بن سهل بن زاذانفروخ، ويظهر من اسمه أنه ما كان عريقا في الاسلام، فجده زاذانفروخ مجوسي، وأبوه سهل مجوسي، وهو نفسه مجوسي، ولكن الله شرح صدره للاسلام كما شرح له صدر أبيه بعد أن تمجسا صدرا من عمرهما، فقد وجدا آباءهما على أمة فاقتديا على آثارهم.

وقد هيأ الله لسهل أسبابا حملته على الاسلام راضيا أو غير راض، ثم هيأ لابنه الفضل أسبابا حملته على الاسلام أيضا راضيا أو غير راض: فقد يكون اسلام سهل ليدفع به عن نفسه ضرا يحيط به من جيرته، وهو يستعدي بإسلامه من يصدون عنه المعتدين عليه، وسالبيه مالا مقسوما له، أو هو يسترضي قوما مسلمين متصلين بصاحب السلطان ليكون له من قوتهم قوة، فلا يقتحمه جيرانه ولا يبذءونه،

---

(١) هذا البحث [illegible]

ومهما يكن من سبب فان سهلا دخل فى الاسلام : فان أخاه يزيد الذى توكل بجارية عاصم بن صبيح كان له ضيعة أحسن القيام عليها ،فوفر ماله ، ولكنه يخلص لجارية عاصم حتى يحظى عندها حظوة شديدة ، فينقم عليه عاصم لفرط الحظوة ويتهمه ، ويحقد عليه ، ويشتد به ذلك حتى يدعوه وهو سكران ، ويضربه بسيفه ضربة تقضى عليه .

إذن، مات يزيد ، وورثه أخوه سهل ، وصارت إليه ضيعة أخيه وبيته ، ولكن عاصما يخاصم سهلا ، ويلح فى الخصومة ، حتى يضع يده على ماتركه يزيد ، ويمنعه سهلا ، فمن يستعدى سهل على عاصم ليخلص له مال أخيه ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينصر سهلا على عاصم وهو مولى داود بن على ؟

فكر سهل وقدر ، ثم فكر وقدر ، حتى هداه تفكيره وتقديره إلى باب يحيى ابن خالد البرمكى صاحب الحول والطول فى دار الخلافة . ولكن من لمثل سهل بيحيى البرمكى ودونه الحجاب والموالى ؟ يحتال على ذلك ، فيتصل بسلام أحد موالى يحيى ، يلجأ إليه ، ويعتصم به ، ويستعين بيده على ظلامته ، فيجيب سلام داعى سهل ، ويرسل إلى عاصم أحد الموالى فى جماعة من الناس ، فينزعون منه الضيعة قوة واغتصابا ، ويقرونها فى يد سهل ، ويحمونه ويحمون ولده وماله من وكلاء عاصم ومواليه .

وكان سهل إلى ذلك الحين مجوسيا ، يتعبد كما يتعبد المجوس،ويزمزم كما يزمزمون ولكن صنيع يحيى أخرجه عن مجوسيته إلى الاسلام ، فهل عرض عليه سلام أن يسلم لانه نافح عنه ورد اليه ماله ؟ أو كان ذلك برا بموعدة وعدها إياه:لئن رد عليه ماله ليدخلن فى دينه ، أو تقرب سهل إلى سلام بدخوله فى دين الاسلام ليعظم فى عينه فيتحمس للدفاع عنه ؛ أو سره أن من المسلمين من ينصف المظلوم ، وإن كان على غير دينه ، فأعجبه ذلك الخلق الجميل ، فدفعه إعجابه إلى الدخول فى الاسلام . وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلماذا لم يسلم سهل قبل ذلك ، وهو يعاشر المسلمين ، ويعيش فى كنفهم ، ويعرف شيئا من تعاليم دينهم ؟

وأيا كان الامر فان سهلا أسلم ، واستمسك به سالم ، ونصب نفسه للدفاع عنه ، وحيطة ماله ، حتى إن عاصما حينما تظلم ليحيى من سلام ، فأنكر يحيى على سلام مافعل — قام سلام مدافعا عن تصرفه ، واقتص القصة على يحيى ، وأحضره سهلا فقام أمامه بحجته ، حتى تبين أنه على حق ، فعاونه على عاصم وكفه عنه .

ولعل اشتكاء عاصم سلاما جعل سلاما يستمسك بسهل ، ويزيد فى قربه إليه ويتولى أمر ضيعته بنفسه ، فيلزمه سهل ويخدمه حتى يعرف البرامكة ، وحتى يعرفه البرامكة ، فيستحضر ابنيه الفضل والحسن إلى ذلك الرحاب ، الواسع الجناب ، ويلتحق الفضل بن سهل بخدمة الفضل بن يحيى ، ويلتحق الحسن بن سهل بالعباس ابن الفضل بن يحيى ، ثم يعرفهما يحيى بن خالد نفسه ، ويقربهما إليه ، ويرعى لهما ولايتهما ، ولم يأل جهدا فى ايلائهما جميله ، وهو يحافظ على يسير الخدمة ، ويصطنع من يتوسم فيهم الصلاح لخدمته ، ويجازيهم معروفا بمعروف ، ويقابل الحسنة بعشرة أمثالها .

والظاهر أن الفضل بن سهل لم يدخل فى الاسلام أول اتصاله بالبرامكة ، فقد ذكر بعضهم أن الفضل بن سهل مر بجماعة وهو على فرس عرى ، وعليه جبة وشى ، وهو بغير سروال ولا خف ، وبيده سيف مشهر ، وخلفه مجوسى طويل العنق ، فوقف المجوسى عليهم ، فاستسقى ماء ، فأتى بماء فى كوز خزف أخضر ، فقال المجوس إنكارا لكوز الخزف : أوشك أن تذهب الدهقنة حتى لايبقى لشىء منها أثر ! أين الفضة ؟ فقال رجل حظرها الاسلام ، قال : فأين الزجاج ؟ قال : منع منه غلظة الهواء ، فأخذ الكوز فشربه ، ثم قال له الرجل : أما ترى إلى صاحبكم هذا ، مايصنع بنفسه ! ؟ فقال : اجتمع له سكر الشباب ، وسكر الشراب ، وسكر السلطان ، وسكر الجدة ، وسكر السخاء . ومضى يتبعه فسألنا عنه ، فقيل : هذا الفضل بن سهل كاتبه ، . اهـ من الوزراء والكتاب .

إذن : الفضل بن سهل يخدم الفضل بن يحيى ، ويمشى فى ركابه ، ويتولى الكتابة له ، وهو مجوسى وكان الفضل بن سهل يجيد الفارسية كما يجيد العربية ، ويحسن الترجمة من الاولى الى الثانية ، ولعل ذلك كان من أسباب تمكنه من نفس جعفر بن يحيى ،

وحظوته عنده ، وامل الفضل بن يحيى هو الذى قدم الفضل بن سهل إلى أبيه يحيى فعرفه وعرف فيه صفات طيبة تدل على مستقبل عظيم ، وتنبىء عن عبقرية نادرة ، حتى إنه قال له يوما : « فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة ، وأنت عندى منهم »

فالفضل بن سهل يعظم فى عين يحيى البرمكى ، حتى يتنبأ له بأيام سعيدة مقبلة ، وقد زاد إعجابه به حتى إنه ترجم له يوما كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بفهمه وعبارته وحسن نقله ، فأراد أن يدله على الطريق التى يتألق فيها نجمه ، ويسعد جده ، ويسير بين الناس ذكره ، أراد أن يدله عليها ضناً بذكائه أن يضيع وبعبقريته أن تقبر ، تلك هى طريق الاسلام ، فيترك مجوسيته ويدخل فى دين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد يدرك بسبب إسلامه مالا يدرك وهو فى مجوسيته ، ثم هو مع ذلك لم يدعه يسلم على يديه ، بل يريد له أكثر من ذلك ، فيجب أن يضعه موضعا ينال به من دنيا الخلافة ، ويبلغ مبلغا رفيعا عند أصحابها ، فأمر سلاما مولاه وصاحب الفضل على أخيه أن يأخذ بيد ذلك الفتى المجوسى ، ويذهب به إلى جعفر مربى المأمون فيدخله جعفر على المأمون ، ويسلم على يديه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك من غير أن يقف الرشيد على الخبر ، فإن يحيى البرمكى قرظ الفتى بحضرة الرشيد حتى احب الرشيد أن يراه ، ويعرف مقدار ما لمكانته من الحقيقة فى نفس يحيى ، فاستحضره يحيى فى مجلس الرشيد ، ولكن رهبة الخلافة أخذته ، وعقلت عليه لسانه ، فوقف حائرا مشدوها لا يدرى ماذا يقول ؟ ولا إذا سئل فبماذا يجيب .

عجب الرشيد من امر هذا الفتى ، وأنكر على يحيى تقريظه أياه ، وتقريبه اليه ، وإهداءه إلى ابنة المأمون ليجلس فى مجلسه ، ولكن الفضل لم يلبث أن فتح الله عليه وحل عقدة لسانه وقال : « يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبه هيبة سيده » فتغير رأى الرشيد فى الفتى وقال بعد أن سمع منه هذه العبارة : « لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة فهو أحسن وأحسن . إذن أحسن الكلام الفتى فى حضرة الرشيد ، وكان كلما سئل أحسن الاجابة ، فلا بأس عليه من أن يقربه ، ولا بأس عليه من أن يسمح له

بالدخول على ابنه المأمون والجلوس فى مجلسه بعد أن أسلم على يديه . ولا عجب أن يرضى عنه المأمون فيصله . ويحسن اليه ، ويجرى عليه رزقا مع غيره من الحشم .

ظل الفضل بن سهل متصلا بالمأمون من ذلك الحين ، وصارت له خاصية به ، وصار له عنده محل ، وتولى الكتابة له ، وصرف أمره كله ، وقدم اليه النصيحة ما كان للنصح محل يقتضيه .

وكان على صلته بالمأمون يرعى عهد البرامكة ، أولياء نعمته ، وذوى الفضل عليه ، حتى إذا نكبهم الرشيد نكبتهم المعروفة ، اختص بالمأمون ، فلما انتقض خراسان على الرشيد وشخص إليه ، عزم على تخليف المأمون ، وعدم إشخاصه معه فقال له الفضل : لاتقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل ، وغير مأمون إن يحدث عليه حادث ، أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من بنى هاشم . فسمع المأمون نصحه ، وسأل أباه أن يشخصه معه ، فأبى عليه ، فقال له إنى أريد خدمتك فى هذه العلة ، ولست أسأل حاجة ، ولا أحملك مئونة . فاذن له ، فسار معه

وهذه مناصحة فتى حازم ، وهب الله له ملبكة عالية يقدر بها على تصريف أمور من أحبه وآثره .

شاء الله بعد ذلك أن يعتل الرشيد ، وأن تلح عليه العلة . وأن يقضى نحبه فى طوس ، وأن يتولى الخلافة محمد الأمين ، وأن يغرى الناس الأمين بأخيه المأمون ، فيرسل إليه كتابا يأمره فيه بضم ولد الرشيد وحرمه وأهله إلى الفضل بن الربيع ويحذره أن ينفذ رأيا ، أو يبرم أمرا ، إلا بعد الرجوع إلى شيخه . وثقة آبائه الفضل بن الربيع ويأمره أن يقر الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأن لا يخرج أحدا منهم عن ضمن ما يلى حتى يقدم عليه ، ويحذره ألا يأمر لأهل عسكره بعطاء أو رزق إلا إذا تولى ذلك الفضل بن الربيع

أخرج الأمين أخاه المأمون بكتابه ، وكان هوى الفضل بن الربيع مع الأمين فجد بالمسير بالعسكر بجميع ما فيه من خراسان ، ولم يحسب للمأمون حسابا . ولم يأبه به ، فأحفظ ذلك التصرف المأمون ، وهم أن يلحق ابن الربيع ومن معه لقتالهم .

ولكن ابن سهل صنيعة المأمون ومناصحه والمخلص له ، لم يعجبه ذلك من المأمون وقال له : « إن فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ، ويحملوك هدية إلى محمد الأمين ، ولكن تقيم ، وتكتب اليهم كتابا . وتوجه اليهم رسولا يذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الغدر والحنث » .

أعجب المأمون رأى الفضل بن سهل ، فكتب إلى الفضل بن الربيع كتابا ، ولكنه لم يقبل من الرسول ، ولم يلتفت اليه ، فعز ذلك على المأمون فخفف عنه صفيه وأمينه الفضل بن سهل بقوله :

هؤلاء أعداء قد استرحت منهم وبعدوا عنك ، ثم طمأنه من ناحية الخلافة . وأعلمه أنه ليس من الهين الانتقاض على الخلفاء والخروج على ما قرروه ، والرشيد وضع نظام الخلافة من بعده ، فليس يسيرا على الناس أن ينقضه الأمين ولاسيما أنه يعرف أن المأمون نازل فى أخواله ، وبيعته فى أعناقهم ، وأن الأمين اذا خلعه فسيضطرب أهل بغداد ، وينقسم بعضهم على بعض ، وأوصاه بالصبر ، وتضمن له الخلافة إن شاء الله .

استشار المأمون الفضل فأشار عليه مؤثرا المصلحة على نفسه ، ولا يرى على نفسه غضاضة أن يقدم أعيان خراسان على نفسه ، لأن من يخلص فى النصيحة تتلاشى ذاته ومصلحته ، وليس أمامه مثل أعلى إلا أن يرى سياسته منتصرة ولذلك كان جوابه للمأمون : إن رؤساء خراسان أنفع منى ، فدعنى أكن خادما لك حتى تصير الى ما تحب ، واجعل ظاهر الأمر اليهم وباطنه إلى ، فأعجب المأمون ذلك الرأى ، وتركه يفعل ما يرى .

رأى الفضل أن الأمر أصبح فى يده ، وأن مستقبل المأمون فى عنقه فحمل على عاتقه ذلك الامر وذهب الى رءوس القوم فى منازلهم ، لأن فى ذلك تأنيسا لهم وذكرهم أمر بيعة الرشيد لابنائه ، وأن ذلك أمانة إسلامية وضعت فى أعناقهم وبحب الوفاء للرشيد بأن يكونوا حراسا على عهده ، أمناء على بيعته ، أوفياء لأولاده .

قال الفضل : فسكتت كأنى آتيهم بجيفة على طبق لا يحل أكلها . فيدفعنى بعضهم ، ويقول بعضهم : ومن يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه ؟

حينئذ خاب ظن الفضل فى رءوس القوم ، إذ خذلوه ، وتحرجوا وتأثموا وعظم فى أنفسهم أن يتدخلوا فى شئون الخلافة ، لأن هذا أمر فوق أن يخوضوا فيه ، أو أن يشيروا برأى .

فلما علم المأمون أنهم غير ناصريه ، أو أنهم على الأقل لن يتدخلوا فيما بينه وبين أخيه — أمر الفضل أن يقوم هو بالأمر ، وأن يصنع ما يرى أنه بالغ به غايته .

كان الفضل — كما قدمنا — نجيبا ذكيا ، فجعل همه أن يجمع الناس حول المأمون وأن يجعلهم يخلصون له ، ويقفون أنفسهم للذود عنه ، وتنفيذ سياسته ، ولا يكون ذلك الا بالاحسان اليهم ، وتعطيف قلوبهم بلطف المعاملة ، وحسن السيرة والتودد إلى عظماء خراسان والظهور للناس

بهذا كله أشار الفضل على المأمون ، إذ رأى أن يجمع الفقهاء ، ويدعوهم الى الحق ، والعمل به ، واحياء السنة ، وأن يجالس للمظالم ويكرم القواد والأمراء وأبناء الأمراء ، وأن يغدق على العلماء ويقربهم ثم أشار عليه أن يحط عن خراسان ربع الخراج ففعل ، فأحبه القوم ، وتعلقت به قلوبهم وقالوا : ابن أختنا ، وابن عم رسول الله.

وقد نجحت تلك السياسة ، فانقاد اليه من عصاه ، وصار اليه من نأى عنه

نجحت سياسة الفضل إلى ذلك الحين ، فاقترح على المأمون أن يكتب له كتابا ينشره باسمه على الناس ، يبين لهم فيه خطته ، ويرسم سياسته ، إذا ولى الأمر ، ودخل الناس تحت إمرته .

كتب الفضل ذلك الكتاب الذى جعل فيه المأمون على نفسه لله إن استرعاه امور المسلمين ، وقلده خلافته فى خلقه — العمل فيهم بكتابه ، وسنة رسوله ، وجعل على نفسه ألا يسفك دما عمدا ، إلا ما أحله حدود الله ، وسفكته فروض الله ، وجعل على نفسه ألا ينال من أحد من المخلوقين مالا ولا أثاثا غصبا ولا بحيلة تخرم على المسلمين ، وجعل على نفسه ألا يعمل فى شىء من الأحكام بهواه . ولا يقضيه مالم يكن ذلك فى الله ولله ، ثم أكد على نفسه العهد أن يسير تلك السيرة رغبة من الله فى الزيادة ، ورهبة من المساءلة إن حاد عن الطريق ، وأقر على نفسه أنه إن تغير أو تحول كان مستحقا للعن ، متعرضا للنكال .

. . .

ألح الفضل بن الربيع على الأمين فى خلع المأمون ، وقوى فى ذلك عزمه وأعانه عليه بعض القواد ولم يعنه بعضهم الآخر ، ورأى المشفقون على الأمين أن يغير سياسته مع المأمون ، وأن يحاول أن يجعل خلعه من الخلافة برضاه وموافقته ، إلا أن الفضل بن الربيع الذى كان يكره المأمون ويخشاه — أشار على الأمين أن يكون جريئا فى ذلك ، وألا يدع الوقت يطول بين الأخذ والرد ، فتسنح الفرصة للمأمون فيتألف الناس ، ويقوى جبهته ، وقد يكون فى ذلك عسر عليه ومشقة . فانصاع له الأمين ، وبايع لابنه بالعهد من بعده ، وخلع المأمون والقاسم ، ونهى عن الدعاء لهما على المنابر ، وأمر أحد الحجاب أن يذهب إلى الكعبة ، ويتلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى الكعبة بالبيعة ، فذهب الحاجب إلى مكة ، وسرق الكتابين وحملهما إليه فمزقهما .

سارت الركبان فى الآفاق بغدر الأمين بأخويه : المأمون والقاسم ، وباستيلاء الفضل بن الربيع عليه ، وتصريفه الأمور من دونه ، وكانوا كلما ذكروا عن الأمين غدره ، ذكروا حسن سيرة المأمون ، ورجاحة عقله وتلطفه ، ورفقه بالناس ، فاستوحش الناس من الأمين ، وانحرفوا عنه ، وسكنوا إلى المأمون ، ومالوا إليه

استوحش الناس من الأمين ، وكرهوا تصرفه ، وانفلوا عنه ، لانحرافه عن الحق ، وما انحرف إلا لسوء بطانته ، وفساد حاشيته ، وعدم إخلاصهم له ، ولقد وصفه وزيره الفضل بن الربيع فقال : ينام نوم الظربان ، ويتنبه انتباه الذئب همه بطنه ، ولا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى فى امضاء رأى ، قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والايام توضع فى هلاكه

أما المأمون فقد سكن اليه الناس ، ومالوا نحوه لحسن سيرته فى قومه وجميل تصرف حاشيته وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذى أحسن الرأى فأصاب وأجاد اختيار الرؤساء والقواد ، فسمعوا وأطاعوا وأخلصوا ، وأحبوه ، وأمروه ، وراسلوه ، واستشاروه ، حتى إن طاهر بن الحسين بعد أن انتصر على جيوش الأمين ، وقتل قائدهم على بن عيسى يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل

من يشتوك فدامك ، كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى إصبعى وعسكره تحت يدى ، والحمد لله رب العالمين .

إذ ذاك فرح الفضل بن سهل ، وأسرع إلى المأمون ، وسلم عليه بأمير المؤمنين وسر المأمون أن تنجح سياسته وسياسة مناصحه ومستشاره ، وسره أن ينتصر طاهر ابن الحسين على على بن عيسى بن ماهان وغيره من قواد الامين ، ولكن لم يسره أن يقتل طاهر الامين ، وهو قسيم المأمون فى اللحمة والنسب ، ولم يسر ذلك أيضا الفضل بن سهل ، لما يعلمه مما عسى أن يكون له من الاثر السيء فى نفوس العامة . فلما انتهى اليه الخبر قال : مافعل بنا طاهر ، سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ؟

بلغ من نفوذ الفضل بن سهل أنه يولى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويصل من يشاء ، ويقطع من يشاء ، إلا أنه ماكان يفعل ذلك عن هوى فى نفسه ، أو رغبة فى منفعة ، ولكنه كان يؤثر المصلحة ، ويتوخى القصد فى كل مايفعل ، فمن آنس فيه قدرة على قيادة الجيوش ، وقرأ فى وجهه الاخلاص ، ولاه القيادة ، ولا يحول دون ذلك حائل ، ومن عرف قدرته على الكتابة ، والتصرف فى أوجه القلم ، أقعده فى الديوان ، وأقعد الكتاب بين يديه ، وماكانت تخيب فراسته فى واحد من هؤلاء : فطاهر بن الحسين قائده الموفق فى كل موقعة حتى انتهى إلى بغداد ، وأحمد بن يوسف كاتبه الذى بقى فضله على الكتاب إلى اليوم .

* * *

استقامت الامور للمأمون ، وأصبح خليفة المسلمين ، وخوطب بأمير المؤمنين ودعى له على المنابر فرد التدبير الى الفضل بن سهل ، وأمضاها على رأيه ، ولقبه ذا الرياستين : أى رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على لسان ذى شعبتين ، وأعطاه مع العقد علما كتب عليه لقبه ، وهو أول من جمع بين لقب الوزارة والامارة فى الاسلام .

وقد عظم فى عين المأمون ، ولم ينكر عليه فضله ، فسارع بعد استقامة الامور له ، وكتب اليه كتابا يعترف له فيه بالفضل والنزاهة والاخلاص ، ويقطعه مكافأة له ولأولاده من بعده ، مقاطعة بالعراق .

فيقول : أعتبت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياى على طاعة الله ، وإقامة سلطانى، فأردت أن أغنيك ، وسبقت الناس : من الحاضر كان لى ، والغائب كان على ، فاحببت أن أسبق الى الكتاب لك بخطى بما رأيته على نفسى ، وأنا أسأل الله تمامه فإن حولى وقوتى ومقدرتى وقبضى وبسطى به ، لاشريك له . وقد أقطعتك السيب بأرض العراق على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتى ولما قمت به من حق الله وحقى ، فلم تأخذك فى لومة لائم ، ولم ترافب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول فى كل شىء فيسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولى بقيامها ، وجعلت ذلك كله لك بشهادة الله ، وجعلت لك كفيلا على عهدى.

« ٥ »

اذن استقامت الأمور للمأمون ، وصارت اليه ولاية أمر المسلمين وألقى المقاليد للفضل بن سهل ودفع اليه خاتمه لعظيم خدمته له . ولعظيم ثقته فيه ، ولأنه ضمن له الخلافة فوفى ، وما زال يفكر فيحسن التفكير ، ويقدر فيحسن التقدير . حتى انتهى الى ما يجب من التصرف فى أمور المسلمين . ولكن الانسان هو الانسان ، والنفس الانسانية هى هى فى عظيم أو حقير : يزهوها النصر ، وتبطرها النعمة ، ويحفظها أن ترى غيرها يزحمها فى موطن عظمتها ، كما يؤلمها أن تهيء الظروف لغيرها ماهيأته لها من أسباب النصر والفخار .

رأى الفضل طرق السعادة تتهيأ لغيره من قواد المسلمين ورءوسهم ممن كانت لهم يد فى نصر المأمون ، وممن كان الفضل نفسه يرى أنهم شيعة المأمون وأهل ولايته وبطانته ، وكان يرى أن فى مشاورتهم تأنيساً لهم ، وكان يرى أن فى قطع الأمر دونهم وحشة وظهور قلة ثقة بهم ، وكان يرى أن عدم استشارتهم تكدرهم ، وتجعلهم يجدون عليه ، وكان يعرض نفسه عليهم فى منازلهم ، وكان إذا تثاقل أحدهم فى أمر سأله أمنيته ، فاذا تمنى أجابه الى أمنيته ، وكان يقول . اذا نال الرجل المنى خاض الدماء .

هذه هى السياسة التى نجح بها الفضل ، والتى حببته إلى الناس ، والتى جعلت المأمون يلقى اليه بخاتمه ، ويجعله مطلق التصرف فى أمور دولته . ولكنه لبس ثوبا غير ثوبه الأول ، وتمكن لمن كان على أيديهم النصر ، وعلى أمنة رماحهم وظبى سيوفهم قامت دولة المأمون ودالت دولة الامين . فماذا فعل ياترى ؟

حال بين المأمون وبين ناصريه ، واستبقاه فى خراسان ، فلم يستطع أحد منهم أن يتقدم إليه ليقفه على حقيقة الامر . وان استطاع واحد أن يصل إليه لا يجد فرصة يتحدث إليه فيها عن شئون رعيته ، وعما يجرى فى الخفاء حيث لا علم له به يدبره الفضل ويمضى الامور على رأيه ، ولا يعرف المأمون . فينتقض الناس على المأمون ، وتقوم الفتن والقلاقل فى مختلف البلاد والاقطار ، ويكثر المتغلبون عن الخلافة ، ويشغب عليه الطالبيون

وتعجب أن يكون ذلك من تصرف الفضل وهو الذى يقول فى توقيع له : الامور بتمامها ، والاعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها . ومع ذلك فلم يحسن الخاتمة ، ولم يدم الصنائع .

أليس هو الذى وجد فى نفسه على طاهر بن الحسين ، واضع أساس الدولة ، والمنتصر على جيوش الامين ، وقاتل على بن عيسى بن ماهان ، ومرسل رأسه اليه ، ثم قاتل الامين فى بغداد ومزيل خلافته ، ولم يعبأ بعتب وجوه خراسان عليه وعزله عما كان يتولاه من الاعمال ومع ذلك فان طاهرا أرسل اليه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن ليظهر الاعتذار ، فلما ورد عليه كلمه كلاما كثيرا ، وأغلظ له ، ثم قال: فلولا أنى رسول الله مأمون ما قلت ما قلته ، فقال له الفضل : أفما خشيت من تحمل هذه الرسالة القتل ؟ فقال عيسى : ما شككت فى القتل ، ولكنى مثلت بين أن آبى على صاحبى تحملها ، وبين أن أقبلها ، فرأيت أن إن لم أتحملها عجل لى القتل ، وحصلت لى مذمة المخالفة ، وان قبلتها كنت قد شكرت نعمته ، وأطعت أمره ، وعشت بينه وبين الامير أعزه الله المسافة التى عشتها . ثم لعلى أكون وردت من فضل الامير وعفوه وحلمه على ما أرجو ألا أبعد عنه ، فقال له الفضل . لو أطعت فيك النصحاء لاسترحت منك ، ولم تكلمنى فى مجلس أمير المؤمنين ، ودار الخلافة ، بما كلمتنى به .

فقال له عيسى . وما رأى النصحاء أعز الله الامير ؟ فقال له الفضل . أن كنت أضرب عنقك قبل أن تصل الى ، وأرد رأسك فى مخلاة الى صاحبك ، فأكون قد قطعت يده ولسانه . فقال له عيسى ، أنا يده ولسانه ، والله لو أن صاحبى أخرج يده من مضربه ، لوجد حوله سبعين بل سبعمائة ، بل سبعة آلاف كلهم أغنى وأجزأ وأكفأ منى ، ومن أنا فيمن قد عضده الله به ، وأعطاه من كفاته؟

بلغ كلام عيسى من الفضل كل مبلغ ، ووقع فى نفسه أن فى وجود طاهر خطرا عليه ، ولا سيما أنه عزله عن البلاد التى تولاها ، وأقصاه عن أمرتها ، وولى مكانه أخاه الحسن بن سهل .

وكذلك وجد الفضل على هرثمة شريك طاهر فى فتح بغداد ، وقامع ثورة ابى السرايا والذى عز عليه أن يكون بين المسلمين ماهو كائن من تذمرهم ، ونفورهم وضعف الروح المعنوية فيهم ، فصمم على أن يتصل بالمأمون مباشرة ، وأن يسدى إليه النصح . ويقفه على حقيقة الامر . ولكن ، هيهات ! فقد دس له الفضل عند المأمون ، وملأ صدره حفيظة عليه ، حتى أنه عندما مثل بين يديه عنفه ، وأغاظ له فى القول ، ونهره ، ووثب عليه الحراس ، فأوسعوه ضربا ، ثم ألقوه فى غيابة السجن حيث مات ، وشاع فى الناس أن المامون قتله .

« ٥ »

ويظهر أن الناس فطنوا الى سياسة الفضل ، ولم يتهموه بالتصرف فى أمر الخلافة فحسب . بل زعموا أنه يريد أن يجعل الملك كسرويا ، وأن يحوله من بنى العباس الى الفرس ، حتى أنه عندما أراد المامون أن يحول الناس من السواد الى الحضرة استرضاء للطالبيين لم يقبلوه ، فبعض أجاب ، وبعض امتنع . ودب الهاشميون بعضهم الى بعض فى بغداد ، وأرادوا خلع المامون الذى ما يزال مقيما بمرو ، ولكن المامون قال لوزيره الفضل . ينبغى أن تحضر نعيم بن أبى حازم ، فانه وجه من الوجوه ، وله سابقة وجلالة وسياسة ، فتناظره فيما أجمعناه من هذا الامر . فاحضره الفضل بحضرة المامون ، وعرفه ما عزم عليه من خلع السواد ونبذه ولبس الاخضر ، ورغبه فيه ، وذكره بما يلزم من الانقياد له ، فلم يرق ذلك فى

نظر نعيم ، وعز عليه أن يكون نصير الهاشمى ، وأن يقطع فى ذلك عمره ، وأن يناضل هو وغيره حتى وصلت الدولة الى ما وصلت اليه من عز وثروة وجاه وأمن ، وأن يبذل هو وغيره مهجهم وأرواحهم فى مقارعة أعداء الدوله من الطالبيين وغير الطالبيين ثم قال . انه لايقبل الضيم ، ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه ، ويدفعه عما يلتمسه ، ويقارعه دونه .

فلما رأى الفضل صلابته ، وما كان فى كلامه من مغالظة ومخاشنة وإصرار ، تجهم له وخلط له لينا بغلظة ، وكان ذلك منه على غير عادة . فظل نعيم على اصراره وزاد فى المغالظة والمخاشنة ووجه اليه تهمة الخيانة التى وجهت الى البرامكة من قبل ولم يخش سلطان الفضل . وسيطرته على المامون ، وتسلطه على أمور الدولة وقال يخاطبه ، انك انما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ، ولو لا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده وهى البياض ، الى الخضرة ، وهى لباس كسرى والمجوس ، ثم أقبل على المامون فقال : الله الله ياأمير المؤمنين ، لايخدعنك الفضل عن دينك وملكك ، فان أهل خراسان لا يجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه ، يعنى عليا الرضا . فقال له المأمون : انصرف ، ولم يظهر له غضبا

اذن : لم يجمع الناس على سياسة الفضل ، ولم يعجبهم أن يتملقوا الطالبيين ، فى التزيى بزيهم ، ثم فى المبايعة لعلى الرضا ، بل زادوا فى ذلك أن اتهموا الفضل فى حضرة المامون بانه يريد أن يجعل الملك كسرويا ، وتصريح نعيم بن أبى حازم بذلك لايعتبر رأيا شخصيا له ، وانما هو رأى جمع غفير من الناس ، فهو فى قومه سابق مقدم ، له رياسة ، وله جلال ان رضى رضى له كثيرون ، ولذلك كان رأى المامون والفضل اقناعه بضرورة العدول عن السواد الى الخضرة ، لانهما رأيا فى ذلك اعتبارات سياسية تضطرهم اليه ، ولكن نعيما وأمثال نعيم من رءوس القوم لم تعجبهم سياسة الفضل ويرموا بها . حتى ضاقوا به ذرعا وأبغضوه الى حد جعل نعيما يغلظ له فى القول ويرميه بالخيانة ، رغم ما كان بينهما قبل ذلك من مودة فقد كان نعيما يجلس فى مجلس الفضل ، ويسمع له ، ويعمل على توقيره واحترامه ،

حتى لقد أنكر على أحد الكتاب أنه ينزع قلنسوته ، ويجعلها إلى جانبه ، إذا دخل على الفضل ، ولم يكتف بانكار هذا ، بل يغضب ، لأن هذا يخالف تقاليدهم ، ويدل على أنهم لا يحترمون من يفعلون ذلك بحضرته ، ويعتب على أحد أصدقاء ذلك الكاتب الذى يخلع قلنسوته فى مجلس الأمير ، ويعبر عن ذلك بأنه استخفاف بالأمير وبأن الناس تكلموا فيه ، فان لم يقلع عن هذا فانه سيدنو منـــه ، ويشهره ، ويرد قلنسوته إلى رأسه بعنف وانكار .

فنعيم بن أبى حازم كانت له صلة طيبة بالفضل ، يجله ، ويحترمه ، ويدفع عنه ، ويخاصم من أجله ، حتى اذا سامت قالة الناس فيه ، وتحول عن السياسة التى رسمها لنفسه ولصاحبه المأمون قبل أن يستقيم لهما الأمر ، وشاعت الشائعات من بين يديه ومن خلفه ، كان ما كان من أمر نعيم مع الفضل والمأمون ، بسبب تغيير الشارة من السواد إلى الخضرة ، ترضية لعلى الرضا ، ولى العهد الجديد ، وترضية لمن حوله من الطالبيين .

لذلك كان لا بد من التفكير فى أمر نعيم ، كما فكروا فى أمر طاهر وهرثمة وغيرهما ، ممن لهم فى قومهم سابقة ورياسة وجلال وان نجاح سياسة الفضل مرهون بالتخلص من نعيم . فماذا يصنع ؟ أيقتله كما أشار عليه المأمون ؟ لا : أن ذلك من خطل الرأى وغلط التقدير وسوء التدبير لأنهم قتلوا هرثمة ، وقدره فى الناس قدره ، وقد تيقن الناس أنهم قاتلوه ، وضربوا من قبل عنق يحيى بن عامر . وأمروا بحمل عبدالله ابن عامر ، وضربه كما يضرب الصبيان ، وهؤلاء جميعا أمراء فى قومهم ، يرضى الناس برضاهم ، ويسخطون بسخطهم ، ويتذمرون لقتلهم . أو تعذيبهم . أو اهانتهم .

لهذا كله تخوف الفضل من قتل نعيم ، لأنه ان فعل كان لأهل خراسان حركة واضطراب ، اذن : لا بد من التفكير ، واعمال الرأى ، فى التخلص منه ، بحيث لا يتحرك الناس ولا يضطربون .

فكر الفضل والمأمون طويلا ، ثم رأى الفضل أن يوجهه فى عدة قليلة ليحارب أحد الخارجين عليهم ، ويكتب إلى العمال الذين يحتاز بهم بتركه وعدم الاكتراث به . ولكن المأمون يكره أن يصير الى ذلك الخارج ، وينضم اليه ، أما الفضل فقد أقنعه أن انضمامه الى الخارج عليهم . أهون من بقائه بينهم ، والرأى ما رأى الفضل

لا ما رأى المأمون ، فانهم سيروا نعيما فى تلك العدة القليلة ، ولكنه لم يلبث أن انضم إلى أعدائهم . فأظهر العداوة لهم . وأعلنوا الغدر به إن أمكنتهم المقادير منه ، وقد كان لهم ما أرادوا . فانهم ظفروا به . وأدخل حافيا حاسرا على الحسن بن سهل يعتذر اليه ويقول : ذنبى أعظم من السماء . ذنبى أعظم من الهواء . ذنبى أعظم من الماء . فيقول له الحسن : على رسلك . فقد تقدمت منك طاعة ، وكان آخر أمرك توبة . وليس للذنب بينهما مذهب . وما ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين عنك فى العفو . وقد أقالك الله . وعفا عنك

* * *

بدأت سياسة الفضل تتحول وتتبدل كما ذكرنا . فولى أخاه الحسن بن سهل إمارة البلاد التى فتحت على يد طاهر بن الحسين . وأخذ يدس عند المأمون للقـــواد والرؤساء من العرب ويحول بينهم وبينه . ويبلغه أخبار الدولة على غير حقيقتها وتشبه بالملوك فى معاملة الناس . فخوطب بالامارة . وكان يجتمع اليه القواد والفقهاء والقضاة ووجوه القوم . ويجلس بينهم على سرير خاص . وكان لا يدخل على المأمون إلا على كرسى مجنح . ولا يزال يحمل حتى تقع عليه عين المأمون . فاذا أحس أنه رآه محمولا أمر بوضع الكرسى . ونزل عنه ومشى ويحمل الخدم الكرسى . حتى إذا وصل الى المأمون سلم عليه . ووضع له ذلك الكرسى المجنح . فيجلس عليه فى حضرة الخليفة . وتلك عادة كسروية ذهب فيها الفضل مذهب الأعاجم . واستولى على المأمون حتى ضايقه فى جارية أراد شراءها

تحدث الناس بشأن الفضل واستيلائه على الخليفة . وبسط سلطانه . والكيد للرؤساء والقواد . وبسطوا ألسنتهم فيه . ولكن بعضهم رأى من حق الدين عليه أن يتقدم الى المأمون . وأن ينصح له . حتى يلقى ربه راضى النفس . مطمئن الضمير ومن هؤلاء هرثمة بن أعين الذى قدم الى مرو . ورغب فى المثول بين يدى المأمون مغاضبا ذا الرياستين . فلما دخل دار المأمون وجد ذا الرياستين جالسا على الكرسى فى الدار . والمأمون فى دار أخرى . فلما انتهى هرثمة الى موضعه قعد ولم يسلم على ذى الرياستين ، فلما انتهى ذو الرياستين من نظر ما كان بيده . التفت الى هرثمة وقال

مرحبا وأهلا وسهلا ياأبا حاتم ، أسعدك الله بمقدمك ، وعظم بركته عليك ، فلم يرد عليه ، هرثمة شيئا ، فاستمر الفضل فى حديثه ، قال : انى قد عرفت امير المؤمنين - اعزه الله - خبرك ، وأن ماحملت نفسك عليه من الدخول بغير اذن لغير معصية منك وصرفت ذلك الى أحسن الجهات فقبل ذلك ، ورجع ما سبق الى قلبه منك ، فلم يرد عليه هرثمة شيئا

ألان الفضل القول لهرثمة ولاطفه ، ولكن هرثمة جاء ليقاضيه أمام الخليفة ، فلم تؤثر فيه ملاينة ولا ملاطفة ، فخشى الفضل أن هرثمة اذا اتصل بالخليفة ، يؤثر عليه ويظهره على حقيقة الحال ، فخف مسرعا الى الدار التى فيها المأمون ، وتحدث اليه بما شاء أن يتحدث به ، ثم خرج الى هرثمة وقال له : ياأبا حاتم ، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك ، والحال التى أنت عليها من العلة ، وأنه لا يمكنك الوصول اليه إلا على الحال التى وصلت عليها الينا . فلم يرد عليه شيئا ، وبعد قليل أذن له المأمون بالمثول بين يديه ، فلما دخل عليه سلم ، فرد المأمون السلام ، ثم بزه وأقبل عليه وأمر ان يطرح له كرسى الى جانبه ، وأقبل عليه يحدثه ويسائله ويعظمه ، ويدعوه بقوله : ياأبا حاتم احتراما له ، ولم يلبث الفضل أن دخل عليهما . وطرح له كرسيه المجشع وجلس ، وبدأ المأمون حديثه والفضل جالس ، قال : ياأبا حاتم ، ما كان لتجشمك هذا السفر مع علتك معنى ، فقال : بلى ياأمير المؤمنين ، تجشمته لأقضى حق الله على فى طاعتك ، وأنبهك على أمرك ، وأقول بالنصح لك ، فقال : ياأبا حاتم ، ليست بك حاجة الى هذا وأنت تعب ، فانصرف الى منزلك ، قال : كلا ياأمير المؤمنين ، ما تجشمت طول السفر لانصرف الى منزلى ، قال المامون : بلى ياأبا حاتم ، أحب ان تنصرف الى منزلك ، وتدع ذكر مالاتحتاج اليه ، وأنت عنه فى غنى ، قال : لا ياامير المؤمنين أو اقضى الحق على فى نصحك ، لانى لا آمن ان يحدث على فى هذه الساعة حادثة فألقى ربى مقصرا فى حق امامى

من هذا يرى ان المأمون يحاول ان يصرف هرثمة عن الكلام ، لأنه يعلم انه سيتكلم فى امر ذى الرياستين ، ولكن هرثمة يابى الا ان يتكلم ، ويلح فى ذلك الحالحا ، لا يصرفه عنه محاولة امير المؤمنين فى ثنيه عنه ، فالخليفة يلاين هرثمة ويلح فى صرفه ، وهرثمة يرى واجبا دينيا عليه ان يناصح إمامه ، فيتدفع ويقول :

الحمد لله الذى لم يمنى حتى رايت هذا المجوسى فى هذا المجلس على كرسى ، ياامير المؤمنين ، ما لفلان وفلان يحبسان بغير ذنب، ويأخذهذا المجوسى امواله واملاكه فيبيعها ويمزقها ؟!

عز على المأمون ان يتكلم هرثمة عن الفضل بمثل هذا الكلام والفضل صاحبه وصفيه وحواريه وجالب الخلافة له ، فتنكر المامون لهرثمة ، وأغلظ له فى القول وأمره أن يمسك عن ذكرمالا يحتاج اليه ، ولكن هرثمة لا يمتنع عن الكلام ويصر على أن يدفع المأمون اليهم هذا المجوسى لينزلوا به ما يستحق،فغضب الفضل ورد على هرثمة ردا شديدا ، وأمر الحراس أن ياخذوا برجله ويجروه من بين يدى الخليفة ، ففعلوا ما أمروا به ، وحبس ثمانية أيام ثم أخرج فى اليوم الثامن ميتا

شق على كثير من الناس قتل هرثمة ، وبلغ من جزعهم عليه أن دخل أحده القواد على المأمون ، وسلم عليه ، وناداه ياأمير المنافقين ، فوثب عليه الفضل وضربه بسيفه فقتله .

وكذلك كان عبدالله بن مالك ، فان الفضل أراد أن يستذله وينكل به ، وأراد أن يستشهد عليه ببعض الناس ، فلم يجيبوه الى تلك الشهادة ، ولكنه تمكن من تنفير المأمون منه ، ومكن فى نفسه البغض له ، فانه اجتمع فى مجلسه يوما القواد والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، وبعد أن استقام له المجلس على كرسيه ، ابتدا الوقيعة فى عبدالله بن مالك ، وذكر انه كان يدعى على الرشيد ، انه كان يدخل بيوت الفتيان ، وينزه الرشيدعن ذلك ، ويرمى عبدالله بالفسق والفجوروالمروق ، ويرميه بأنه كان يأتى المواخير والدساكر ، لا يرفع عن ذلك نفسه ، ولا يأنف من فجره ولا يصون عرضه عن قذره

وهو اذ يرمى بذلك عبدالله يحاول أن يستشهد عليه ببعض وجوه من يتكلم معهم ، ويتحدث اليهم فيقول ، ان ابا معن ليعلم ذلك ، ويعرف ما اقول (يريد بأبى معن ثمامة بن الاشرس) ولكن ثمامة يطرق الى الارض ، ويخرج بالصمت عن لا ونعم ، لان عبدالله بن مالك عربى مثله ، ولأنه اذا قال نعم ، كان سببا فى

هلاكه ، فاستمر الفضل فى كلامه ، وتوسع فى الادعاء على عبدالله حتى رماه بالخبل ثم اقبل على ثمامة مرة ثانية ، واستشهد به ، فلم يجبه ، وخرج بالصمت عن لا ونعم

وانما كان يرجو الفضل من ثمامة ان يؤمن على كلامه امام هذا الجمع من القواد والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، حتى اذا فتك به بعد ذلك لم يقم من يعترض عليه ، فلما لم يجبه ثمامة الى ما يريد استمر فى قذفه حتى فرغ من كلامه

فلما انصرف الناس احس ثمامة انه تعرض لموجدة الفضل وهو الوزير ، والمقدم عند الخليفة ، فما كاد يصل الى منزله حتى لحق به بعض اخوانه من شيعة الفضل ، وعتبوا عليه ان اعرض عن الفضل يخاطبه مرة بعد مرة ، فقال لأصدقائه : انا والله احق بالموجدة عليه اعزه الله ، لانه قام فى مثل ذلك الجمع ، وقد حضره كل شريف ومشروف ، ولم يستشهد بى فى خطبته ، وما اجراه من كلامه الا فى موضع ريبة او ذكر سكرة ، ومنزل مقين او مقينة ، والله ما اقدر ان اشهد بذلك. فصدقه اصدقاؤه وراوا انه احق بالمعتبة عليه .

وهو وإن كان بذلك استطاع أن يدفع عن نفسه موجدة الفضل عليه ، فانه يصرح لخاصته أنه مارد على الفضل تشيعا لعبد الله بن مالك .

ويظهر أن الفضل كانت فى نفسه موجدة أى موجدة لعبدالله بن مالك ، فانه مازال بالمأمون حتى وجد هو أيضا عليه ، ويخيل إلى أن عبد الله بن مالك كان يسل لسانه على الفضل لينال منه ، فشكاه الفضل الى المأمون ، فأحضر قاضى خرسان ، وجلس للقضاء على مسمع من المأمون ، ليحكم فى قضية ادعاها الفضل على عبد الله بن مالك وشكا من أنه شتم أمه ، ولكن القاضى كان شاكا فى تلك الدعوى ، فسأل الفضل : وأمك باقية ؟ قال نعم . قال: فالحق لها، إن كنت صادقا ، فلتحضر لتطالب بحقها ، أو توكلك ، ويشهد عندى شاهدان أعرفهما بتوكيلها إياك بطلب حقها . فخرج الفضل من المجلس ثم لم يلبث أن عاد ومعه شاهدان ، شهدا أمام القاضى أن أمه قد وكلته بطلب حقها . فلما سئل عبدالله بن مالك أنكر ما ادعاه الفضل عليه ، فسأل القاضى الفضل أن يقيم البينة ، فشهد الشاهدان نفسهما بصدق ما ادعى ، وطلب من القاضى

أن يأخذ له بحقه ، ولكن القاضى كان ذكيا ، فتبين فى الشاهدين كذبهما ، ورجح أن الفضل هو الذى حملهما على الشهادة بالتوكيل ثم الشهادة بصدق الدعوى ، وأبى أن تباح ظهور المسلمين بشهادة مثل هذين الرجلين ، إلا أن المأمون لم يطمئن إلى رأى القاضى ، وأحب أن يؤخذ عبد الله بشهادة الرجلين ، فصاح : أحكم له بشهادتهما ، فابى القاضى ، واقترح على المأمون أن يحكم هو بشهادتهما ، فهو الامام ،وهو الخليفة ولا راد لحكمه ، فأمر المأمون بالقاضى ، فسحب من الدار ، وحكم هو بضرب عبد الله .

° ° °

رأى الفضل بعد ذلك أن يحارب العرب بسلاح البرامكة فتقرب اليه الشعراء . وأغدق عليهم العطاء ، فأطلقوا ألسنتهم فى مدحه وإطرائه ، وفيه يقول أحدهم :

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة وإن عظموا إلا لفضل صنائع
ترى عظماء الناس للفضل خشعاً إذا مابدا والفضل لله خاشع
تواضع لمـــا زاه الله رفعـــة وكل رفيـــع قدره متواضع

ومن مداحه ابراهيم الصولى ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهما ، من كبار شعراء العصر العباسى الأول فانهم أحاطوا به لـكثرة رفده ، وسنى عطائه ، ومدحوه وبالغوا فى مدحه ، فكان له من ذلك اكان لسادته وكبرائه البرامكة من قبله ، ومن قول أحد الشعراء فيه .

للفضل بن سهل يد تقاصر عنها المثل
فنائلها للغـــنى وسطوتها للأجل
وباطنها للنـدى وظاهرها للقبـل

ومن مدحوه محمد بن عبد الملك الزيات بقوله

يا ناصر الدين إذ رثت حبائله لأنت أكرم من آوى ومن نصرا
أعطاك ربك من إكرام نعمته رياستين ولم تظلم بها بشرا
لو كان خلق ينال النجم من كرم إذا لنالت يداك الشمس والقمرا

لم يجده نفعًا أن قرب إليه الشعراء فمدحوه وبالغوا فى مدحه ، لأن سياسته التى

انتصرها ، وأزال خلافة ، وأقام أخرى لم تكن هي السياسة التي سار عليها بعد أن استقام الأمر له ولصاحبه . فانه كما قدمنا استبد بالأمر من دون غيره من القواد والرؤساء ووجوه القوم . وحال بين المأمون وبين رعيته . وحجب إليه المقام في مرو دون بغداد مقر الخلافة . ولم يستطع أحد أن يبلغ المأمون ما فعله الفضل بطاهر وهرثمة وغيرهما . وأصبح الناس يبغضون المأمون . والمأمون يبغضهم . فالفضل عنده كل شيء . وما يشير به هو الخير كل الخير وما عداه هو الشر كل الشر . ولكن الأمور لا تستقيم على مثل هذه الأحوال . ولا بد أن يهيء الله من تتغير المسائل على يديه . ويجريها صالحة طيبة . إلا أن الفضل كان بالمرصاد لهؤلاء الناس . فاذا تمكنوا من صاحبه أفسدوا عليهم فيغلظ لهم . ويخاشنهم . ثم ينكل هو بهم ويتعنتهم . فيقتل بعضهم . ويحبس بعضهم . ثم يضرب بالسياط وينتف اللحى ؛ وكان هذا يجعل الناس يتهيبون الأمر . ويفضلون الانقباض على الخليفة والانفلال عنه . وتفتق الأقطار عليه . على أن يعرضوا أنفسهم للتنكيل والتعنيت .

ظل الحال على ذلك زمانا : فلا ناصح أمين . ولا أذن سامعة واعية ! حتى استيقظ على الرضا ولي عهد المأمون وضاق بالفضل ذرعا وخشي على الدولة أن تتمزق . ولا سيما أن له فيها اليوم ضلعا فهو شريك صاحبها . وولي عهده والخليفة من بعده .

دخل على هذا على المأمون يوما وكاشفه بحقيقة الحال وأطلعه على ما كان يكتمه عنه الفضل وأعلمه أن أهل بيته والناس قد تقموا منه أشياء وأنهم يقولون : إنه مسحور أو مجنون وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمه ابراهيم بن المهدي بالخلافة . فقال المأمون : إنهم لم يبايعوا له بالخلافة وإنما صيروه أمير القوم بأمرهم كما أخبره الفضل فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين ابراهيم والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون منك مكانه ومكان أخيه منك ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك

فلما علم المأمون بذلك أراد أن يستوثق من الامر قبل أن يتخذ له رأيا فسأل عليا الرضا عن الذين يعلمون ذلك الأمر من أهل عسكره فذكر له على بعضا منهم فأمر بادخالهم عليه يسائلهم عما ذكر علي ؛ فلما مثلوا بين يديه سألهم عن حقيقة

الامر ولكنهم كانوا يرهبون سلطان الفضل ويخشون أن يلحق بهم مثل ما ألحق بغيرهم من التعذيب والتنكيل فجعل لهم الأمان من الفضل وأخذ على نفسه عهدا ألا يدعه يتعرض لهم فوقفوه على حقيقة الحال وأطلعوه على ماهو مشتعل من نيران الفتن وأخبروه بغضب أهل بيته وموالية وقواده عليه فى أشياء كثيرة وعرفوه أن الفضل دس الى هرثمة من قتله وما كان من هرثمة شيء أكثر من أنه كان يريد مناصحة الخليفة بما يناصحونه به الآن. وأنكروا عليه أن طاهر بن الحسين الذى أبلى فى طاعته ما أبلى ، وافتتح من البلاد ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزمومة ـ أنكروا عليه أن هذا الذى وطأله الامر يخرج من الامر مسخوطا عليه ويصير الى زاوية من الارض وتحظر عليه الاموال ليضعف أمره ويشغب عليه جنده :

وما زال القوم بالمأمون حتى غيروا رأيه وأقنعوه بضرورة الخروج الى بغداد لكى يهدأ الناس ويطمئنوا عليه ويتقدموا له بالطاعة وتهدأ الثورات التى اشتعلت فى أكثر البلاد .

علم الفضل بالامر فجاء بمن ناصحوا المأمون ونكل بهم تنكيلا شديدا ولم يحفهم المأمون ولما قيل له فى ذلك اجاب بأنه يدارى ماهو فيه ثم أمر بالخروج من مرو إلى بغداد فلما وصل فى طريقه إلى سرخس تآمر قوم على الفضل ودخلوا عليه فى الحمام وشدوا عليه فضربوه بالسيوف حتى مات فى أوائل شعبان سنة ٢٠٢ هـ

* * *

والذى أرجحه أن المأمون حينما تفتقت عليه أقطار الدولة وانفل عنه أقاربه من بنى العباس واجترأ عليه بعض الرؤساء وخاشنه حين كان يعتب عليه فى استسلامه للفضل وأخذ العهد على المسلمين لمبايعة على الرضا من بعده وقامت الثورات فى كثير من البلاد وبويع لابراهيم ابن المهدى بالخلافة فى بغداد حينما حدث هذا كله تلفت حوله فوجد أنه مقبل على ظلام شديد لابد أن يسارع إلى تبديده وإزالة تسحبه واحدة فواحدة فدس على الفضل من قتله ، ثم جاء بقتلته وأجرى معهم تحقيقا فجاهوه بأنه الآمر بقتله فقتلهم إما خشية أن يفتضح الامر وإما ارضاء لاخيه الحسن الذى تزوج

من ابنته وولاه الوزارة مكانه . ثم أنى بمن كانوا ينقدون سياسة للفضل وقتلهم ، ثم قتل عليا الرضا إرضاء لبنى العباس ، ثم حرض خادما له على طاهر بن الحسين فسمه وكان سببا غير مباشر فى اعتلال الحسن بن سهل بعلة زامنته أكثر من ثلاثين عاما حبس من أجلها فى بيته ، وقيد بالحديد .

بعد أن تخلص من هؤلاء جميعا صفا له الجو ، واستنار الطريق ، وصار خليفة من جديد .

وبعد — فان موقف الفضل من المأمون ، وموقف المأمون من الفضل . يذكرنا بما كان بين أبى مسلم الخراسانى والمنصور ، وبما كان بين البرامكة والرشيد ، فكان على الفضل أن يتعظ بما جرى لأبى مسلم من قبله ، ثم بما جرى لأساتذته البرامكة على مرأى منه ومسمع .

ولكن يظهر أن الانسان هو الانسان ، من أى جيل وفى أى زمان ، يطغيه السلطان ، وتبطره النعمة ، وتعميه شهوة الرياسة عن النظر فيما يجرى حوله من أمور . ويخيل إليه أن على بصر الناس غشاوة : فليس لهم رءوس ، وليس فى رءوسهم عقول ، وهؤلاء وأمثالهم ، لا يضلون إلا أنفسهم ، ولا يؤتون إلا من مأمنهم ، فاللهم اجعل لنا فى سير الماضيين عبرة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

* * *

مراجع البحث

١ — تاريخ الطبرى ج ٩
٢ — الكامل لابن الاثير ج ٦
٣ — تاريخ ابن خلدون ج ٣
٤ — مروج الذهب ج ٣
٥ — تاريخ ابن الوردى
٦ — الاخبار الطوال
٧ — وفيات الاعيان ج ١
٨ — الاعلام ج ٢
٩ — مختارات البارودى ج ٢
١٠ — الامالى ج ٣
١١ — التنبيه والاشراف للمسعودى
١٢ - الوزراء والكتاب للجهشيارى

محمد احمد برانق